جغرافية الثقافة : علم الأنساب عبر الأطلسي

مقدمة الجزء الثاني

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

إن من المغري أن نتخيل جغرافية الثقافة كونها مجالاً فرعياً متماسكاً من فروع الجغرافيا له جذوره الفكرية المتميزة وسلالته الواضحة منذ التأسيس وحتى الوقت الحاضر . ومثل هذا النهج جذاب لأننا نحب أن نفكر في دراساتنا الحالية كونها مبنية على أساس متين وضعه أسلافنا ، وأن نوسع هذا الأساس إلى اتجاهات جديدة مهمة لم تكن لتتحقق لولا العمل الذي سبقه . ولكن هذا النوع من التاريخ من شأنه أن يشكل تبسيطاً مفرطاً يهدف إلى خدمة احتياجاتنا الحالية أكثر من فهمنا للماضي . ويبدو أن هناك حاجة إلى النظر إلى جغرافية الثقافة كونها مجالاً واحداً للدراسة ، وهو المجال الذي يمكن تلخيصه بدقة في قراءات مثل هذا الكتاب . والواقع أن جغرافية الثقافة أعيد اختراعها مرات عديدة ، وخاصة في الولايات المتحدة ، بدءاً بكتاب فاغنر ومايكسيل "قراءات في الجغرافيا الثقافية" (1962). لقد ظهرت مؤخرًا موجة من الكتب والمراجع ، كل منها يضع طابعه الخاص على جذور وتطورات هذا المجال المعاصرة ، على سبيل المثال ،

(كتابFoote et al.'s Re-reading Cultural Geography ، 1994،
وكتابAnderson et al.'s Handbook of Cultural Geography ، 2003،
وكتابDuncan et al.'s A Companion to Cultural Geography ، 2004،
وكتابThrift and Whatmore's Cultural Geography ، 2004)

ولا يعني هذا أن هذه الكتب تعرض تاريخًا "حاضرًا" لجغرافية الثقافة ، وهو التاريخ الذي يمثل كل الأبحاث السابقة في هذا المجال كونها الأساس الذي يرتكز عليه عملنا الحالي كجغرافيي الثقافة . بل على العكس من ذلك . فأكثر من أي شيء آخر، يكشف لنا الاطلاع على التجميعات والمجموعات والمراجع المختلفة لجغرافية الثقافة **أنها مجال انتقائي** يضم مجموعة واسعة من الموضوعات العلمية ، والتي يبدو أن العديد منها لا تشترك في الكثير من القواسم المشتركة مع بعضها البعض . في مقال في إحدى هذه المجموعات (إعادة قراءة جغرافية الثقافة لفوت وآخرين) ، ذهب جيمس دنكان إلى حد تسمية جغرافية الثقافة بـ **"المكان المغايري"** ، وهو ما يعني أنها لا تشترك في "مشروع فكري مشترك" بقدر ما تشترك في "موقع مؤسسي" . يأتي استخدام دنكان لمصطلح "المكان المغايري" من الفيلسوف الفرنسي والناقد الاجتماعي ميشيل فوكو، ويصف مساحة تحتوي داخلها ، أو تقارن ، بين مواقع عدة غير متوافقة . إنها مساحة "أخرى" ، مساحة من الاختلاف

ولكن المكان المغايري ليس مجرد مساحة مجردة من الاختلاف . لقد قصد فوكو من ذلك تحديد المواقع أو الأماكن الفعلية التي تتجمع فيها الاختلافات غير المتوافقة ــ مهما كانت محرجة . استمد فوكو المصطلح الطبي "المكان المغايري" (الذي يعني إزاحة عضو من موضعه الطبيعي) للإشارة إلى تلك المساحات في المجتمع التي تعمل بمثابة "يوتوبيا مضادة" . وهكذا ، فبينما كانت اليوتوبيا نوعًا من الفضاء الخالص الذي لم يكن موجودًا حقًا - حرفيًا "لا مكان" - لكنه عبر عن المعايير الاجتماعية التي سيطرت على أفكارنا حول أنواع الفضاءات التي يجب أن توجد ، كانت **الهيتيروتوبيا** مساحة فعلية توجد فيها بالفعل مواقع متضاربة مختلفة . يمكن النظر إلى خشبة المسرح كونها هيتيروتوبيا . وبينما أشار فوكو إلى المستشفيات النفسية والسجون وغيرها من أماكن الانحراف والأزمات كونها هيتيروتوبيا ، فإن مثاله الأساسي لمثل هذه المساحة كان الحديقة : "كانت الحديقة التقليدية للفرس مساحة مقدسة كان من المفترض أن تجمع داخل مستطيلها أربعة

أجزاء - تمثل الأجزاء الأربعة من العالم ، مع وجود مساحة أكثر قداسة من غيرها كانت أشبه بالسرة ، سرة العالم في مركزها (كان الحوض ونافورة المياه هناك) ؛ وكان من المفترض أن تتجمع كل نباتات الحديقة في هذه المساحة ، في هذا النوع من العالم المصغر".

عند التفكير في جغرافية الثقافة كونها فضاءً غير متجانس ، فإننا نتذكر أن فوكو كان ينظر إلى هذه الفضاءات كونها تتألف من الانضباط والسلطة . وربما كانت الفضاءات غير المتجانسة ، على نحو متناقض ، هي الفضاءات التي تشكلت من خلال الانضباط والسلطة . إن **جغرافية الثقافة** ليست مجرد نتاج لترتيبات اجتماعية معينة للعالم ، بل إنها ترتيبات أسفرت عن فضاءات متناقضة من الاختلاف ، بدلاً من فضاءات مثالية من اليوتوبيا . فكيف إذن قد يؤدي الترتيب التأديبي الأوسع للجغرافيا إلى هيتيروتوبيا دنكان لجغرافية الثقافة ؟ كيف قد تمثل جغرافية الثقافة اليوم فضاءً من الاختلاف تم تشكيله ، كما كان ليقول فوكو، من خلال "أنظمة الحقيقة" الخاصة التي حددت معايير المعرفة الجغرافية ؟

هذا السؤال مهم لسببين على الأقل : **أولاً،** من المهم أن ندرك أن مجالًا علميًا مثل جغرافية الثقافة قد تشكل في حد ذاته من خلال العلاقات الاجتماعية التي يقع العلماء في إطارها . وبهذا المعنى ، لا توجد الأفكار والمعرفة بمعزل عن المواقف الاجتماعية التي يتم إنتاجها فيها . ومن ثم ، يقع على عاتق أي طالب لجغرافية الثقافة أن يفهم السياقات الاجتماعية التي تم إنتاج جغرافية الثقافة في إطارها كحقل للمعرفة حول العالم . **ثانياً،** يتطلب فهم إنتاج المعرفة في إطار الوضع الاجتماعي أن ننظر أيضاً إلى دراساتنا الحالية بالطريقة نفسها ، مع الاعتراف بأن ما يُنظَر إليه بسهولة في بعض الأحيان اليوم كونه إخفاقات أخلاقية أو أخلاقية لأسلافنا لا يمكن إخفاؤه بأمان في سلة المهملات للتاريخ . **يجب الاعتراف بإنتاج المعرفة ، سواء في الماضي أو في الحاضر، كونه مشبعًا بعلاقات اجتماعية للقوة .**

في الجزء الثاني ، نركز على الأعمال السابقة في جغرافية الثقافة مع التركيز على فهم بعض السياقات الاجتماعية التي تم إنتاج جغرافية الثقافة في إطارها . يضم القسم مقالات أصلية لفريدريش راتزيل ، وبول فيدال دي لا بلاش ، وكارل ساور، و دبليو جي هوسكينز، وويلبر زيلينسكي . تم تقديم كل من هذه المقالات بمناقشة موجزة تضع عمل هؤلاء المؤلفين في سياق اجتماعي أوسع . بالإضافة إلى ذلك ، قمنا بتضمين ثلاث مقالات لعلماء معاصرين - كارل ديت ، وبريان جراهام ، وبيرز جروفود - يدرسون أعمال فرانز بتري ، وإستين إيفانز، وهـ. ج. فلور على التوالي ، كأمثلة على الدراسات الحالية التي تستخدم بشكل مثمر النظر إلى الجغرافيين السابقين كونهم موجودين في سياقات اجتماعية معينة . وإذا نظرنا إلى هذا القسم ككل ، فسوف نوضح أن جغرافية الثقافة- مثل جميع التخصصات الأكاديمية - كانت دائمًا خاضعة للترتيبات الاجتماعية التي تشكل المعرفة في أي نقطة معينة من التاريخ .

في العنوان الفرعي لهذا القسم **"علم الأنساب عبر الأطلسي"** ، فإننا نشير إلى مصطلح آخر، علم الأنساب ، الذي استخدمه فوكو لوصف الدراسة التاريخية لممارسات التأديب التي تجلب ذاتية الشخص إلى الوجود . تنشأ مثل هذه الممارسات من السياقات التاريخية التي تحقق فيها مجموعات معينة من الأفكار نوعًا من "الحس السليم" ، ومن ثم تُمنح هذه الأفكار الاستقرار والقوة داخل مؤسسات معينة (على سبيل المثال ، التعليمية والحكومية والطبية) . استخدم فوكو المصطلح لوصف وسيلة لتحليل الطرق التي يتم بها ضبط تصورات الناس وتجاربهم وتفسيراتهم للعالم من خلال **الخطاب** ؛ أي من خلال الطرق المقبولة اجتماعيًا لقول الأشياء ، والأفكار السليمة. ولأن الخطابات تعكس علاقات القوة الاجتماعية الخاصة التي تهيمن في فترة تاريخية معينة ، فإن **علم الأنساب** كان دراسة لكيفية ظهور خطابات معينة تاريخيًا وكيف شكلت الذاتية خلال فترات تاريخية معينة . وبالتالي فإن علم الأنساب هو استكشاف للظروف التاريخية المحددة التي يتم بموجبها دمج البيانات وتنظيمها لتشكيل وتحديد مجال متميز من المعرفة ، وتشكيل "نظام معين للحقيقة".

يسعى علم الأنساب إلى معالجة أسئلة مثل هذه : في ظل أي ظروف تاريخية تنشأ حقائق معينة وتحقق القوة ؟ كيف تنشأ التشكيلات الخطابية الخاصة ؟ في الإشارة إلى علم الأنساب عند فوكو هنا ، نقترح أن جغرافية الثقافة لا تعكس فقط السياقات الاجتماعية التي تم إنتاجها فيها ، بل تعكس أيضًا حقيقة مفادها أن تاريخ جغرافية الثقافة لا يمكنه أن يفترض أن معرفتنا الحالية قد تم إنشاؤها من خلال عملية مباشرة للبناء على أفكار الماضي وتحسينها . جادل فوكو، بدلاً من ذلك ، بأن الخطابات غير متصلة تاريخيًا ، وأن العصور التاريخية المختلفة تتميز بمعرفات مختلفة .

في كتابه "ترتيب الأشياء" (1970/1966) ، استخدم فوكو مصطلح **المعرفة** لوصف افتراضات الفطرة السليمة التي وفرت الأساس لأنواع المعرفة والخطابات التي كانت ممكنة خلال فترة تاريخية معينة . حدد ثلاثة معرفات مميزة ، لكل منها نظامها المهيمن لإعادة إنتاج المعرفة : عصر النهضة ، حيث تم إعادة إنتاج المعرفة في المقام الأول عن طريق التشابه ؛ الفترة الكلاسيكية ، حيث هيمن التمثيل ؛ والعصر الحديث ، حيث كانت البنيوية هي الإطار الأساسي الذي تم من خلاله إعادة إنتاج المعرفة حول العالم . وبالتالي ، فإن المعرفة التي كانت ذات معنى خلال عصر ما قد يُنظَر إليها في عصر آخر على أنها هراء تام .

لا يعني هذا أن أعمال جغرافيي الثقافة الأوائل ينبغي أن يُنظَر إليها كونها هراءً . بل إن هذا يعني أن الجغرافيات الثقافية السابقة تشكل عملنا الحالي بطرق معقدة وغير متوقعة في كثير من الأحيان . كما يعني أيضًا **أن مصطلحات مثل "الثقافة" أو "المظاهر الطبيعية" أو "الحضارة" أو "الأمة" أو "الطبيعة" لا تحمل بالضرورة معاني متسقة** ، بل يجب أن يُفهَم أنها تحمل في طياتها بعض المفاهيم السليمة للفترات التاريخية المعينة التي تُستخدم فيها . على سبيل المثال ، كان يُنظَر إلى الثقافة في بعض الأحيان كونها ما يفصل البشر عن الطبيعة ، ولكن يُنظَر إليها أيضًا كونها شيئًا يعكس تأثير الطبيعة على البشر. وكان يُنظَر إلى الثقافة كونها تنتج مناطق دون وطنية ذات أنماط حياة مميزة ، ولكن تم حشدها أيضًا لوصف وحدة الدول القومية . وقد أنتجت هذه الاقترانات بين الأفكار المختلفة تفسيرات قوية في الجغرافيا .

فكرة أن الطبيعة قوة مؤثرة على السلوك البشري ، على سبيل المثال ، كانت تعد من قبيل المنطق السليم في الجغرافيا خلال العقود الأولى من القرن العشرين . ولكن من المرجح اليوم أن يفكر جغرافيو الثقافة في الحتمية البيئية كونها فكرة محرجة تتورط فيها الجغرافيا الأكاديمية في إعادة إنتاج أفكار عنصرية تفسر القوة الأوروبية الأميركية من حيث المزايا المناخية الممنوحة للشعوب البيضاء البشرة في شمال غرب أوروبا . ومن ناحية أخرى ، كانت هناك انتقادات لجغرافية الثقافة اليوم بسبب خجلها في استكشاف التأثيرات البيئية على الثقافة . ومع ذلك ، نجد أن مثل هذه الانتقادات غير مبررة ، وبالتالي اخترنا تخصيص قسم كامل من الكتاب لموضوع الطبيعة (ينظر الجزء الرابع) . في الجزء الحالي ، تعرض الاختيارات التي قام بها راتزل ، وفيدال ، وساور، وهوسكينز منظورًا معينًا للعلاقة بين الطبيعة والثقافة يعكس المنطق السليم للسياقات الاجتماعية والتاريخية المعينة .

إن **الأمة كمقياس للتحليل** هي فكرة أخرى ذات وضع اجتماعي وتاريخي يتم استكشافها في هذا الجزء . اليوم ، غالبًا ما يُلاحظ أن الجغرافيين كانوا داعمين لمشاريع بناء الأمة وهذا يعني أحيانًا تواطؤهم في مشاريع الاستعمار والإمبريالية والفاشية . وفي حين أنه من المهم بالتأكيد الاعتراف بـ "خطايا الماضي" ، فإن هدفنا هنا ليس سرد قصة عن العار الماضي والفداء الحالي . لا شك أن الماضي ليس له احتكار للمنح الدراسية المخزية . ومع ذلك ، فإننا أكثر اهتمامًا بوضع **علماء الماضي** بحيث ننظر إليهم على أنهم تشكلوا - وفقًا لمصطلحات فوكو - من خلال معرفات معينة ، وننظر إليهم من منظور علم الأنساب الخاص بفوكو، وليس من منظور التقدمية السياسية .

من الواضح أن الاعتراف بالسياقات الاجتماعية والتاريخية لا يعني أنه لا ينبغي لنا أن نرى العنصرية أو الفاشية على حقيقتها . ولكن من المهم أن نذكر أنفسنا بأن الأفكار التي نعدها اليوم مخزية لا يمكن أن نحصرها بأمان في الماضي الذي تجاوزناه الآن . وإذا كان من الممكن الآن أن نحاسب علماء لامعين مثل فريدريش راتزل وبول فيدال دي لا بلاش على مواقفهم الإمبريالية أو افتراضاتهم العنصرية (كما ينبغي لهم أن يكونوا) ، فإن التواضع يتطلب منا أن نقبل احتمالية إخفاقاتنا الأخلاقية أيضًا . ولهذا السبب نسعى إلى تجنب بناء جغرافية ثقافية "تقليدية" كأداة لتأسيس بعض التقدمية المتأصلة في جغرافية ثقافية "جديدة" . إن تقسيم جغرافية الثقافة إلى نصفين تقليدي وجديد ـ وهو ما حدث بعد إطلاق وابل من الانتقادات الحادة في ثمانينيات القرن العشرين ـ يخاطر بافتراض أننا في الواقع نتحدث عن نسخ ماضية وحاضرة من الوحش نفسه . وبدلاً من ذلك ، تصر النظرة الأنسابية لجغرافية الثقافة على أن يتم وضع كل الدراسات العلمية ضمن السياقات التي تمنح القوة والشرعية لأفكارنا .

وأخيرا ، لابد من إضافة شيء هنا عن الجزء "عبر الأطلسي" من عنوان هذا الجزء . ورغم أننا أدرجنا مختارات من علماء قاريين مثل راتزل وفيدال دي لا بلاش ، فضلا عن مقال ديت عن بتري ، فإن الجزء الأكبر من المادة في هذا القسم ـ وفي الكتاب عموما ـ من تأليف علماء يعملون إما في الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى وأيرلندا . ومن ثم فإن هناك سمة أخرى من سمات جغرافية الثقافة غير التقليدية تتمثل في وضع كل من الدراسات الأمريكية والأنجلو أيرلندية في المجال التخصصي نفسه . والواقع أن العديد من العلماء قد يقولون إن الجغرافيات الثقافية التي تمارس على جانبي الأطلسي غالبا ما تبدو مختلفة إلى الحد الذي يجعلنا نشكك في مزايا تقاسمها للتسمية نفسها .

ففي الولايات المتحدة ، تطورت جغرافية الثقافة إلى حد كبير من تأثير كارل ساور ، مع التركيز على المظاهر الطبيعية والأوصاف الغنية للتغير التاريخي كما يتجلى في القطع الأثرية المادية المتغيرة للاستيطان البشري والعمل على الأرض . في حين استوحى ساور نفسه الكثير من الإلهام من مدرسة Landschaft الألمانية ، وكذلك من التقليد الفيدالي للكتب الإقليمية الوصفية الغنية ، فإن جغرافية الثقافة الأمريكية تطورت في سياق تأديبي في أوائل ومنتصف القرن العشرين كان عدائيًا بشكل متزايد تجاه الصفات "غير العلمية" لوصف المظاهر الطبيعية . ومع ذلك ، حافظت جغرافية الثقافة على مكانة مهمة في الجغرافيا الأمريكية ، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى شعبيتها كمقدمة للطلاب الجدد في هذا التخصص .

وحتى اليوم ، فإن العديد من دورات الجغرافيا البشرية التمهيدية التي تُدرَّس في الولايات المتحدة هي في الأساس مسوحات وصفية للمظاهر الطبيعية الثقافية في العالم . في بريطانيا ، نشأت جغرافية الثقافة من تقليد قوي ليس في وصف المظاهر الطبيعية ولكن في التاريخ الاجتماعي . في حين مارس دبليو. جي. هوسكينز نوعًا من جغرافية الثقافة التي كان من الممكن أن يكون كارل ساور وطلابه في الولايات المتحدة معترفًا بها للغاية ، إلا أن عمله لم يُعترف به في بريطانيا كونه جغرافيا ثقافية في حد ذاتها ، بل "تاريخًا للمظاهر الطبيعية" . بدلاً من ذلك ، استمدت جغرافية الثقافة المزيد من العمل على العلاقة بين التغيير الاجتماعي والثقافي (كما يتضح ، على سبيل المثال ، في الاختيار الذي أجراه إي. بي. تومسون في مجلة "القارئ") . وبينما قد تكون المظاهر المادية لمثل هذا التغيير في المظاهر الطبيعية ذات صلة بالدراسة ، إلا أنها لم تكن الشغل الشاغل لجغرافية الثقافة في بريطانيا . لقد مرت عقود عدة الآن منذ أن بدأ جغرافيو الثقافة البريطانيون والأمريكيون في الانخراط في عمل بعضهم البعض بشكل كبير، ونتيجة لذلك كان هناك قدر هائل من الإخصاب عبر الأطلسي . ولكن من المهم أن نلاحظ أن علم أنساب جغرافية الثقافة يجب أن يأخذ في الحسبان هذا الانقسام المكاني والاستمرارية والانقطاعات الفكرية التي ما تزال تحدده .